الطّبريّ مُفسِّرًا راويةً

◆ الأستاذ المتمرّس الدّكتور:محمّد كاظم البكّاء*

المُلخّص:

اختلف المُفسّرون في تفسـير بعض الآيات، وقد تابعنا الطّبريّ في موقفه منها، فوجدناه مُفسِّرا راويةً، ليس له رأي في المفاضلة والتّصويب فيما وقفنا عليه، وإنّ هذا البحث يدعونا إلى إعادة النّظر في ما شاع بين المسلمين من آراء مختلفة في التّفسير، وأن نبيّن الصّواب منها توحيدًا للكلمة في أمّة التّوحيد.

الكلمات المفتاحيّة: الطّبريّ، التّفسير، القرآن، جامع البيان، القراءات

المقدّمة:

حرصًا على دراسـة (منهج الطّبريّ في التّفسـير) دراسـةً موضوعيّةً، توخّيتُ بجهدٍ إضافيٍّ ودراسـةٍ مسـتقلّةٍ اسـتقراءَ الآيات التي اختُلف في تفسـيرها وتأويلها؛ فهي التي تُتيح لنا الموازنـة والمقارنة بين الطّبريّ (٢٢٤-٣١٠هـ) والمفسِّرين الآخرين، منطلقًا من ابن فارس أبي الحسين أحمدَ بن فارس بن زكريا القزوينيّ الرّازيّ (٣٢٩- ٣٩٥هـ) في كتابه (المقاييس) الذي كان يستشهد فيه بالأصول اللّغويّة في تفسير القرآن الكريم.

* كلّيّة الفِقه- جامعة الكوفة.

ثمّ راجعتُ بعضَ كتب التّفسير الأخرى، فوجدتُ الطّبريَّ يستعرض عددًا من الرّوايات والأقوال، ولا يُقيّمها فيفاضل بينها غالبًا، وعادةً يبدأ قوله: (والقول في تأويله) أو (وقوله كذا... واختلف أهل التّأويل)، ثمّ يستعرض الرّوايات والأقوال والآراء؛ فهو من الكتب الموسوعيّة، ويمكن عده من (كتب الرّواية التّفسيريّة) الذي ينحو به نحو كتب الرّوايات في الحديث مثل صحيح البخاريّ وبحار الأنوار للمجلسيّ وغيرهما، ومع الإشادة بجهود الطّبريّ الموسوعيّة العظيمة؛ جزاه الله خيرًا فيما قدّمه للتّفسير مرجعًا واسعًا ينهل منه الباحثون، وجدتُ بعض المُفسّرين الآخرين آثرَ المفاضلةَ والتّقويم، وانتهى إلى ما ينبغي الاعتماد عليه من رأي، وهذا يتّضح في هذا البحث ونحن نقابِل الآراء والأقوال عند الطّبريّ بآراء الآخرين وأقوالهم في تفسير بعض الآيات التي اختُلف في تفسيرها.

والذي عليه البحث أيضًا أنّي وجدتُ أنّ الدّراسات الحديثة تُعنى بالتّفسير على وفق موضوع معيّن يقع ضمن تخصّص المفسّر، ولعلّ بنت الشّاطئ هي أوّل مَن قدّم أنموذجًا تطبيقيًّا لدراسة تخصّصيّة في (التّفسير البيانيّ في القرآن الكريم)، ومثله تفسير ابن عاشور (التّحرير والتّنوير) الذي عُني غالبًا ببيان وجوه الإعجاز، ونُكّت البلاغة العربيّة، وأساليب الاستعمال، ومثله (تفسير الجَلالَيْن) الذي يُعنى باللّغة عادةً، ويمكن أن نعدّ منها مؤلَّفنا (القرآن الكريم، تصنيف موضوعيّ على وفق نظريّة النّصّ) وغيرها؛ وهكذا نستطيع أن نُصنّف التّأليف في التّفسير في منهجين: منهج الرّواية والآراء الشّخصيّة، ومنهج الدّراسة الموضوعيّة التّخصّصيّة، وهم جميعًا يستحقّون التّقدير والتّعظيم في خدمة كتاب الله المجيد.

مُقابلة أقوال الطّبريّ بآراء مفسّرين في عشر مسائل وقع في تفسيرها الخلاف:

وفيما يأتي أقوال الطّبريّ فيما وقفنا عليه في تفسيره، نُقابِل بها آراء المُفسّرين في عدد من المسائل التي وقع الخلاف في تفسيرها:

١- قال تعالى **(إِنَّ السَّاعَةَ ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا)** [طه: ١٥].

في المقاييس (خفي): «ويقرأ على هذا التّأويل **(إِنَّ السَّاعَةَ ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا)**، أي: أُظهرها»، فهي همزة سلب (خفي وأخفى). فالأصل في الأسرار الخفاء، وعلم السّاعة من أمور الغيب وهي سرّ، ولكنّ الله تعالى كاد يُظهره.

وقد أخطأ بعض المفسّرين، في تفسير الطّبريّ: يقول تعالى ذكره: إنّ السّاعة التي يبعث اللهُ فيها الخلائقَ من قبورهم لموقف القيامة جائية (أَكَادُ أُخْفِيهَا) فعلى ضمّ الألف من أخفيها قراءة جميع قُرّاء أمصار الإسلام، بمعنى: أكاد أخفيها من نفسي، لئلّا يطّلع عليها أحد، وبذلك جاء تأويل أكثر أهل العلم.

ذِكْرُ مَن قال ذلك:

حدّثني عليّ، قال: ثنا عبد الله، قال: ثني معاويةُ، عن عليّ، عن ابن عبّاس، قوله (أَكَادُ أُخْفِيهَا) يقول: لا أُظهر عليها أحدًا غيري».

٢- قال تعالى **(وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا)** [الواقعة: ٥].

في المقاييس (بس): «أصلان، أحدهما السّوق، والآخر فتّ الشّيء وخلطَه» ثمّ قال« فالأوّل قوله

تعالى (وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا)؛ يقال: سِيقت سوقًا »، ثمّ قال:«والأصل الآخر قولهم: «بسّت الحنطة وغيرها، أي: فُتِّتت، وفسّر قوله تعالى (وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا) على هذا الوجه أيضًا».

وفي تفسير الجلالين «وفُتِّتت الجبال تفتيتًا دقيقًا ».

وفي تفسير الطّبريّ وغيره: «(وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا) يقول تعالى ذكره: فُتِّتت الجبال فتًّا، فصارت كالدّقيق المبسوس، وهو المبلول، كما قال جلّ ثناؤه(وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا) والبسيسة عند العرب: الدّقيق والسّويق تُلَتّ وتُتّخذ زادًا».

وفي اللّسان (٧/ ٣٢٥)«من المدينة إلى الشّام والعراق يبسّون، ويقال: بسّت الدّابّة وأبسستها إذا سقتها وزجرتها، وقلت لها: بس بس».

وفي الحديث «يجيء قومٌ من المدينة يبسّون، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»، بمعنى السّوق.

وهنا يتّضح أنّ المفسّرين ذهبوا إلى المعنى الثّاني الذي ذكره صاحب المقاييس، وذكره اللّسان، ولا بدّ من تحديد أحدهما بما يُناسب القرآن الكريم (ساق، أو فتّ الشّيء وخلطه).

والذي أراه هو المعنى الثّاني (فتّ الشيء وخلطه) الذي ذهب إليه المفسّرون، بدلالة قوله تعالى **(وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا)** [المزّمّل: ١٤]؛ في تفسير الجلالين: «(مهيلًا) سائلًا بعد اجتماعه، وهو من هال يهيل، وأصله مهيول، استُثقلت الضّمة على الياء فنُقلت إلى الهاء، وحُذِفت الواو ثاني السّاكنين لزيادتها، وقلبت الضّمّةُ كسرةً لمجانسة الياء».

وكذلك في تفسيرالطّبريّ:«وقوله: (وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا) يقول: ونُسفت الجبال فاجتُثَّت من أصولها، فصُيِّرت هباءً منبثًّا، لعين النّاظر، كالسّراب الذي يظنّ مَن يراه من بُعدٍ ماءً، وهو في الحقيقة هباءً».

٣- قال تعالى **(قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)** [الأحقاف: ٩].

في تفسير الجلالين: «(قل ما كنت بدعًا) بديعًا (من الرّسل) أي أوّل مرسلٍ قد سبق قبلي كثيرون منهم فكيف تُكذّبونني».

وفي المقاييس (بدع) «أي: ماكنت أوّل».

تفسير الطّبريّ: «القول في تأويل قوله تعالى: **(قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ)**.

يقول تعالى ذكره لنبيّه محمّد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم: قل يا محمّد لمشركي قومك من قريش (مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُل) يعني: ما كنتُ أوّل رُسُلِ الله التي أرسلها إلى خلقه، قد كان من قبلي له رسلٌ كثيرة أُرسلت إلى أممٍ قبلكم؛ يقال منه: هو بدع في هذا الأمر، وبديع فيه، إذا كان فيه أوّل. ومن البدع قول عديّ بن زيد.

فَلا أنا بِدْعٌ مِنْ حَوَادِث تَعْتَرِي ❊

رِجَالاً عَرَتْ مِنْ بَعْدِ بُؤْسَى وَأَسعد».

ورأيُنا يوافق قول الطّباطبائيّ (في «الميزان في تفسير القرآن»: ١٨/ ١٩٠): «قوله تعالى: **(قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ)** إلخ، البِدْع ما كان غير مسبوق بالمثل

من حيث صفاته أو من حيث أقواله وأفعاله، ولذا فسّره بعضهم بأنّ المعنى: ما كنتُ أوّلَ رسولٍ أُرسل إليكم لا رسولَ قبلي، وقيل: المعنى: ما كنتُ مبدعًا في أقوالي وأفعالي لم يسبقني إليها أحد من الرّسل.

والمعنى الأوّل لا يُلائم السّياق ولا قوله المتقدّم: (وهو الغفور الرّحيم) بالمعنى الذي تقدّم توجيهه، فثاني المعنيين هو الأنسب.

وعليه فالمعنى: لستُ أخالف الرّسل السّابقين في صورة أو سيرة، وفي قول أو فعل، بل أنا بشر مثلهم؛ فيّ من آثار البشريّة ما فيهم وسبيلهم في الحياة سبيلي.

وبهذه الجملة يُجاب عن مثل ما حكاه الله من قولهم: **(وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا)** الفُرقان:٧- ٨».

٤- قال تعالى **(قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ)** [الأحقاف: ٤].

في المقاييس (خط): «قال الله تعالى (هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ)، قالوا: هو الخطّ».

تفسير الطّبريّ: «حدّثنا بشر بن آدمَ، قال: ثنا أبو عاصم، عن سفيانَ، عن صفوانَ بنِ سليم، عن أبي سلمةَ، عن ابن عبّاس (أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ) قال: خطّ كان يخطّه العرب في الأرض. حدّثنا أبو كُرَيْب، قال: قال أبو بكر: يعني ابن عيّاش: الخطّ: هو العيافة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أو خاصّة من علم».

وفي جامع البيان في تفسير القرآن: «حدّثنا بشر بن آدمَ، قال: ثنا أبو عاصم، عن سفيانَ، عن صفوانَ بنِ سليم، عن أبي سلمةَ، عن ابن عبّاس (أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ) قال: خطّ كان يخطّه العرب في الأرض. وعندئذ يتّضح أنّ (أَثَارَةٍ) هو الخطّ قطعًا؛ وليس بمعنى (بقيّة) الذي ورد في تفسير الجلالين؛ «تفسير الجلالين «(أو أثارة) بقيّة (من علم) يُؤثر عن الأوّلين بصحّة دعواكم في عبادة الأصنام أنّها تقرّبكم إلى الله».

٥- قال تعالى **(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)** [محمّد: ٦].

في تفسير الجلالين «(ويُدْخِلهم الجنّةَ عرّفها) بيّنها (لهم) فيهتدون إلى مساكنهم منها وأزواجهم وخدمهم من غير استدلال».

وفي المقاييس (عرف) «ومن الباب العَرف، وهي الرّائحة الطّيّبة، وهي القياس؛ لأنّ النّفس تسكن إليها؛ يقال: ما أطيب عَرفَه، قال الله سبحانه وتعالى (وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)، أي: طيّبها».

وقال في المقاييس (عرف)«وسمّيت بذلك (عرفات)؛ لأنّه مكان مقدّس معظّم؛ كأنّه قد عرّف» ثمّ ذكر الآية الكريمة.

وفي تفسير الطّبريّ: «وقيل: عرّفها لهم أي: بيّنها لهم حتّى عرفوها من غير استدلال. قال الحسن: وصف اللهُ تعالى لهم الجنّةَ في الدّنيا، فلما دخلوها عرفوها بصفتها. وقيل: فيه حذف، أي: عرّف طرقَها ومساكنَها وبيوتَها لهم، فحذف المضاف.

وقيل: هذا التّعريف بدليل، وهو الملك المُوكّل بعمل العبد يمشي بين يديه ويتبعه العبد حتّى يأتي العبد منزله، ويعرّفه الملك جميع ما جعل له في الجنّة، وحديث أبي سعيد الخدريّ يرده، وقال ابن عبّاس: عرّفها لهم أي: طيّبها لهم بأنواع الملاذّ، مأخوذ من العَرف، وهو الرّائحة الطّيّبة. وطعام معرّف أي: مُطيّب، تقول العرب: عرّفت القِدر إذا طيّبتها بالملح والأبزار».

والأَوْلى (طيّبها)؛ لأنّ المقام للتّرغيب بدلالة الآيات السّابقة **(وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)** [محمد:٤- ٦].

٦- قال تعالى **(ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ)** [يوسف: ٤٩].

في تفسير الجلالين «(وفيه يعصرون) الأعناب وغيرها لخصبه».

وفي المقاييس (عصر) «ويقال للغلّة عصارة، وفسّر قوله تعالى (وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) قال: يستغلّون بأراضيهم، وهذا من القياس؛ لأنّه كأنّه اعتصر كما يعتصر العنب وغيره؛ قال الخليل: العصر العطاء».

وفي تفسير الطّبريّ:

«وأمّا قوله (وفيه يعصرون)، فإنّ أهل التّأويل اختلفوا في تأويله. فقال بعضهم: معناه: وفيه يعصرون العنب والسّمسم وما أشبه ذلك.

ذِكْرُ مَن قال ذلك:

- حدّثني المُثنّى قال، حدّثنا عبد الله قال، حدّثني معاوية، عن عليّ، عن ابن عبّاس: وفيه يعصرون قال: الأعناب والدُّهْن.

- حدّثنا القاسم قال، حدّثنا الحسين قال، حدّثني حجّاج، عن ابن جريج قال، قال ابن عبّاس: (وفيه يعصرون السّمسم دهنًا، والعنب خمرًا، والزّيتون زيتًا) «، ثمّ ذكر أقوالًا أخرى لا تُجاوز ما قيل.

وقولُ ابن فارس في المقاييس تعبيرٌ دقيقٌ «أنّهم يستغلّون أراضيهم ».

٧- قال تعالى **(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ)** [الملك: ١٩].

وفي المقاييس (قبض) «وأمّا القبض الذي هو الإسراع فمن هذا أيضا؛ لأنّه إذا أسرع جمع نفسه وأطرافه؛ قال الله تعالى» وَيَقْبِضْنَ «، قالوا: يُسرعن في الطّيران».

وفي تفسيرالطّبريّ:

«(أوَلَم يَروا إلى الطّير فوقَهم صافّات)، يقول: أوَلَم يرَ هؤلاءِ المشركون إلى الطّير فوقهم صافّاتٍ أجنحتهنّ (ويقبضن) يقول: ويقبضن أجنحتهنّ أحيانًا.

وإنّما عني بذلك أنّها تصفّ أجنحتها أحيانًا، وتقبض أحيانًا. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التّأويل.

ذِكْرُ مَن قال ذلك:

حدّثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادةَ، في قوله (صافّات) قال: الطّير يصفّ جناحه كما رأيت، ثمّ يقبضه.

حدّثني محمّد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى؛ وحدّثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال:

ثنا ورقاءُ، جميعًا عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قولــه (صافّــات ويقبضــن) بســطهنّ أجنحتهنّ وقبضهنّ».

في تفســير الجلالَيْن «أوَلم يَـرَوا» ينظروا «إلى الطّيرِ فوقَهم «في الهواء» صافّاتٍ «باســطات أجنحتهنّ» ويقبضن« أجنحتهنّ بعد البَسْــط، أي وقابضات » ما يُمْسِــكُهُنّ «عن الوقوع في حال البَسْــطِ والقَبْضِ» إلّا الرّحمن« بقدرته»إنّه بكلّ شيءٍ بصير « المعنى: ألم يســتدلّوا بثبوتِ الطّير في الهواء على قدرتنا أن نفعلَ بهم ما تقدّم وغيره من العذاب».

وإنّما الصّواب عند ابــن فارس « وَيَقْبِضْنَ قالوا: يُسرعن في الطّيران»، ولا يحتمل أيّ معنًى آخرَ.

وأمّا ما ذهبَ إليه المفسّرون الذين وقفنا عندهم فهو تفسير لا يخلو من نظر؛ فقد نظروا إلى سلوك الطّائــر عند الطّــيران؛ فقالوا (يقبضــن) بمعنى قبض الجناحين؛ ثمّ زادوا بســط الأجنحة؛ فجعل تفســيرُ الجلالَيْن: (ما) بمعنــى الجناحين، وإنّما هي حرف نفي (مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ)، وكذلك ما ذهب إليه الطّبريّ بنحوٍ آخرَ من التّفسير.

وكان عليهــم النّظــر إلى علامــات الوقــوف في رســم المُصحف؛ فقد كانــت «أَوَلَمْ يَـرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ » جملة مســتقلّة برأســها، وكذلك كانت الجملة «مَا يُمْسِــكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ» مستقلّة برأسها، وبينهما «وَيَقْبِضْنَ» كذلك.

٨- قال تعالى **(وَلَوْ نَشَــاءُ لَأَرَيْنَاكَهُــمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِــيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَــوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ)** [محمّد: ٣٠].

واستطرادًا في تقويم التّفسير وجدتُ:

تفســير الطّبريّ: «وقولــه: فلعرفتهم بســيماهم، يقول: فلتعرفهم بعلامات النّفــاق الظّاهرة منهم في فحوى كلامهم وظاهر أفعالهم».

تفســير الفخر الرّازيّ (٢٨/ ٧٠):«قوله (في لحن القول) فيه وجوه»:

أحدها: في معنى القول؛ وعلى هذا فيحتمل أن يكون المُــراد من القــول قولهــم، أي لتعرفنّهم في معنى قولهم حيث يقولون ما معناه النّفاق كقولهم حين مجيء النّصر (إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ)، وقولهم (لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ) ، وقولهم (إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ)، وغير ذلك.

ويُحتمــل أن يكــون المُــراد قول اللــه عزّ وجلّ، أي، لتعرفنّهم في معنى قــول الله تعالى حيث قال مــا تعلم منه حــال المنافقــين كقوله تعــالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَــلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا)، وقوله (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)، إلى غير ذلك.

وثانيهــا: في ميل القول عن الصّواب حيث قالوا ما لم يعتقدوا، فأمالوا كلامهم حيث قالوا (إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْــهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)، وقالوا (إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ)، إلى غير ذلك.

وثالثهــا، في لحن القــول، أي في الوجه الخفيّ من القــول الذي يفهمه النّبيّ عليه السّــلام ولا يفهمه غيره».

تفسير البغوي (تفسير الخازن والبغوي: ٥/ ٤٧٢): «(ولو نشاء لأريناكهم) أي: لأعلمناكهم وعرّفناكهم (فلعرفتهــم بســيماهم) بعلامتهم، قــال الزّجّاج:

المعنى: لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامةً تعرفهم بها.

قال أنس: ما خفيَ على رسول الله(ﷺ) بعد نزول هذه الآية شيءٌ من المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم، (ولتعرفنّهم في لحن القول) في معناه ومقصده».

واللّحن: وجهان صواب وخطأ، فالفعل من الصّواب: لحن يلحن لحنًا فهو لَحِن إذا فطن للشيء، ومنه قول النّبيّ (ﷺ): ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض.

والفعل من الخطأ: لحن يلحن لحنًا فهو لاحن.

والأصل فيه: إزالة الكلام عن جهته.

والمعنى: إنّك تعرفهم فيما يُعَرِّضُونَ به من تهجين أمرك وأمر المسلمين والاستهزاء بهم، فكان بعد هذا لا يتكلّم منافقٌ عند النّبيّ صلى الله عليه وسلم إلّا عرفه بقوله، ويستدلّ بفحوى كلامه على فساد دخيلته».

وخلاصة ما ننتهي إليه من أقوال المفسّرين وأصحاب المعاجم: أنّ المفسّرين يذهبون إلى تفسير (لحن القول) إلى (ما يُقال أو فحوى الكلام)، أي: مضمونه ومَرْماهُ الذي يتَّجه إليه القائل، وغيره، وكلّ ذلك بعيد عن المعنى في علم اللّغة الحديث، وهو مصطلح يعرف بـ (التّنغيم)، وقد سمّاه العلامة إبراهيم أنيس (موسيقى الكلام) في علم اللّغة، وهو يكشف عن تفسير مسائلَ غيرِ قليلةٍ في تفسير القرآن الكريم .

٩- قال الله تعالى **(فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا)** [الإسراء: ٢٣].

في معجم مقاييس اللّغة: «قال ابن دريد: «أفَّ يؤفّ أفًّا إذا تأفّف من كرب أو ضجر».

تفسير الطّبريّ:

«وقد اختلف أهل المعرفة بكلام العرب في معنى (أفّ)، فقال بعضهم: معناه: كلّ ما غلظ من الكلام وقبُح. وقال آخرون: الأُفّ: وسخ الأظفار والتَّفُّ كلّ ما رفعتَ بيدك من الأرض من شيء حقير، وللعرب في«أُفّ لغات ستّ».

ثمّ قال:«قالوا: وإنّما كسرنا الفاء الثّانية لئلّا نجمع بين ساكنين. وأمّا مَن ضمّ ونَوَّن، فإنّه قال: هو اسم كسائر الأسماء التي تُعرف وليس بصوت، وعدل به عن الأصوات، وأمّا مَن ضمّ ذلك بغير تنوين، فإنّه قال: ليس هو باسم متمكّن فيُعرب بإعراب الأسماء المتمكّنة، وقالوا: نضمّه كما نضمّ قوله: لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ، وكما نضمّ الاسم في النّداء المفرد ».

وقال الفرّاء:«أفٍّ خفضًا بغير تنوين، وأفٍّ خفضًا مع النّون؛ وذلك أنّه صوت كما تخفض الأصوات، فيقال: طاقِ طاقِ».

والذي نراه هو ما ذهب إليه سيبويه والفرّاء إلى كونه صوتًا؛ لأنّ سيبويه يرى أنّ اسم الفعل للأمر والنّهي خاصّة؛ بقصد التّعجّل في الكلام أكثر تعجّلًا من فعل الأمر الذي يجري فيه الجزم والحذف، ولا يقع ذلك في الأفعال الماضية والأفعال المضارعة التي صيغت للإخبار؛ وبذلك هو ينفي مصطلح (اسم فعل ماض) و (اسم فعل مضارع)، وأنّ ما يرد منها هو من (الأصوات) نحو: هيهات وشتّان، وآخ، وآه، وكذلك «أُفٍّ »، وهو في ذلك يخالف جميع النّحويّين الذين اتسعوا في (اسم الفعل) فجعلوه في ثلاثة أقسام: اسم

فعل ماض، واسم فعل مضارع، واسم فعل أمر، وفي ضوء ذلك قال جميع المُفسّرين والنّحويّين أنّ «أُفٍّ» في القرآن الكريم هي (كلمة، اسم فعل مضارع يدلّ على التّأفّف).

ومزية هذه الدّراسة ومن لوازمها أيضا الدّعوة إلى إعادة النّظر فيما شاع بين المسلمين من آراءٍ مختلفة في التّفسير، وأن نُبيّن الصّواب منها توحيدًا للكلمة في أمّة التّوحيد.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ـ «بحار الأنوار »، الشّيخ محمّد باقر المجلسيّ، مؤسّسة الوفاء، بيروت.

ـ «التّحرير والتّنوير- تحرير المعنى السّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمّد الطّاهر بن محمّد بن محمّد الطّاهر بن عاشور التّونسيّ (المُتوفَّ: ١٣٩٣هـ)، الدّار التّونسيّة للنّشر- تونس، ١٩٨٤م.

ـ «التّفسير البيانيّ للقرآن الكريم»، عائشة بنت عبد الرّحمن بنت الشّاطئ، دار المعارف بمصر، ١٩٩٠م.

ـ «تفسير الجلالَيْن الميسّر»، جلال الدّين المحلّيّ، وجلال الدّين السّيوطيّ، تحقيق: فخر الدّين قباوة، ٢٠١٥م.

ـ « تفسير الخازن والبغويّ» (ج٥)، ضبطه وصحّحه: عبد السّلام محمّد علي شاهين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٥م.

ـ « تفسير الفخر الرّازيّ » (ج٢٨)، فخر الدّين محمّد بنُ عمرَ الرّازيّ (ت ٦٠٤هـ)، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط١، ١٩٨١م.

ـ «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» (تفسيرالطّبريّ)، أبو جعفر محمّد بن جرير بن يزيدَ الطّبريّ (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التّركي، دار عالم الكتب، الرّياض، ط١، ٢٠١٥م.

ـ «جامع البيان في تفسير القرآن »، محمّد بن عبد الرّحمن بن محمّد بن عبد الله الإيجيّ الشّيرازيّ الشّافعيّ (ت ٩٠٥هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلميّة، بيروت.

ـ «صحيح البُخاريّ »، محمّد بن إسماعيلَ البُخاريّ، دار ابن كثير، بيروت، ٢٠١٧م.

ـ «لسان العرب »، (مج ٧)، أبو الفضل جمال الدّين، محمّد بن مكرم، ابن منظور، المطبعة الميريّة ببولاق مصرَ المحميّة، القاهرة، ط١، ١٣٠١هـ.

ـ «القرآن الكريم، تصنيف موضوعيّ على وفق نظريّة النّصّ»، الدّكتور محمّد كاظم البكّاء، بيروت، ط١، ٢٠١٩م.

ـ «معجم مقاييس اللّغة »، أبو الحسين أحمدُ بن فارس بن زكرياء القزوينيّ الرّازيّ (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

ـ «الميزان في تفسير القرآن »(ج١٨)، محمّد حسين الطّباطبائيّ، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، قم- إيران (ب. ت).